
الحسين
في وجدان الأمة

الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م

مكتب سماحة الشيخ حسن الصفار
هاتف ٩٦٦٣٨٥٥٥٢١٠+
فاكس ٩٦٦٣٨٥١٢٦٠٠+
ص. ب: ١٣٢٢ القطيف ٣١٩١١
القطيف - المنطقة الشرقية
المملكة العربية السعودية
البريد الالكتروني: office@saffar.org
الموقع على الانترنت: www.saffar.org

الحسين

في وجدان الأمة

حسن موسى الصفار



الحمد لله رب العالمين. اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

المحتويات



مقدمة

الحسين نهر متدفق من العطاء ترتوي منه كل الأجيال.

وعاشوراء مدرسة للإباء والصمود يرتادها عشاق الحرية والعدل في كل زمان.

إن الاحتفاء بذكرى استشهاد الإمام الحسين يوفّر للأمة أعظم الفرص لتجديد العهد بقيم رسالتها المجيدة، ولتأكيد هويتها الأصيلة في نفوس أبنائها الناشئين.

من هنا يتحمل خطاب عاشوراء مسؤولية كبيرة في تفعيل رسالة هذه المناسبة.

إن ذكرى سيرة الإمام الحسين ووقائع أحداث كربلاء، يجب أن يكون

إطاراً لمضمون الأهداف الحسينية، والتي هي إصلاح الأمة، والأمر بكل معروف يخدم رقيها، والنهي عن كل منكر يعرقل مسيرتها. كما قال عليه السلام: (إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر).

وهذه السطور المتواضعة هي نموذج لخطاب يحاول أداء هذه الوظيفة.

وهي في الأصل محاضرتان ألقيتهما في ليلتي الحادي والعاشر من شهر محرم الحرام سنة ١٤٢٨هـ في القطيف.

قام الأخوة الأعزاء في المكتب بإعدادهما للنشر ضمن هذا الكراس فلهم جزيل الشكر، راجياً أن يكون فيها فائدة للمجتمع وأن يتقبلها الله بأحسن القبول. إنه سميع مجيب.

حسن الصفار

٨ محرم ١٤٢٩هـ

١٧ يناير ٢٠٠٨م

القطيف


عاشوراء من أيام الله



قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1].

تتحدث هذه الآية عن مصطلح (أيّـام الله)، ولربما لا يكون هذا المصطلح متداولًا بشكل واسع في الثقافة والخطاب الإسلامي المعاصر، ولذا سنحاول أن نغطي جانبًا من البحث حول الحديث عنه، لنركّزه تاليًا عن خصوص يوم عاشوراء، كيومٍ من أيام الله، لذا سيكون حديثنا في هذه الآية منطلقًا من المحورين التاليين:

المحور الأول: أهمية التذكير بأيّام الله

لفهم المقصود بِ «أيام الله» الوارد في الآية الكريمة، لا بدَّ من التمهيد لذلك ببحث لفظة «اليوم» علميًّا وعرفيًّا.

معنى اليوم

اليوم ـ علميًّا ـ: يعرّف بأنه المدّة الزمنيّة التي تستغرقها الأرض للدوران

(١) سورة إبراهيم: الآية ٥.

حول نفسها، والتي تمتدّ لأربعٍ وعشرين ساعة.

بينما اليوم ـ عرفًا ـ: ما يقابل الليل، حيث يبدأ اليوم من شروق الشمس وينتهي بغروبها. فيقال في كثير من أدبيات العرب: اليوم والليلة، و«مسير يومٍ وليلة». وقد وردت بعض الأحاديث الشريفة تستعمل اليوم في هذا المعنى. وقد صنّفت بعض كتب الأدعية فيما يسمّى بِ «أدعية اليوم والليلة»، بينما الليل يقابله ـ علميًّا ـ النهار، ومن الليل والنهار يتكون اليوم الواحد.

بداية اليوم

اختلفت الشعوب والمجتمعات في تحديد بداية اليوم:

- فالعرب ـ وبالتالي عند المسلمين ـ واليهود يَعُدُّون بداية اليوم من غروب الشمس، فتكون بداية الليل هي البداية الفعلية لأي يوم، ليكون غروب شمس ذلك اليوم هو آخر أوقاته، والساعة ما قبل الغروب هي آخر ساعات ذلك اليوم.
- بينما ما عليه الرومان والأوروبيون الآن أن بداية اليوم تكون من منتصف الليل، أي انتهاء الساعة الثانية عشرة بالتوقيت الزوالي.

نسبة الأيام إلى الله تعالى

في الآية الكريمة توجيه إلهي للنبي موسى عليه السلام أن يذكّر قومه بِ «أيام الله»، فما المقصود بهذه الأيام؟

الأيام من ناحية زمنية كلها أيام الله، فهو سبحانه خالق الزمان والمكان، وخالق كل ما يحيط بنا في هذا الكون الفسيح.

ولكنّ نسبة أمرٍ مّا إلى الله تعالى يدلّ على تشريفه وتعظيمه، وذلك كنسبة بعض الأمكنة لله، كالمسجد الذي يطلق عليه أنه بيت من «بيوت الله». وكذلك شهر رمضان الذي يطلق عليه أنه «شهر الله».

وقد اختلف المفسّرون في المقصود بِ «أيام الله» الـواردة في الآية الكريمة على ثلاثة أقوال:

١. فقال بعضهم أن «أيام الله» هي تلك الأزمنة والأيام التي انتصر الله تعالى فيها لأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، وذلك لما تحقق فيها من عزّة لدين الله ونصر لأوليائه ولقيم الحق. وعلى هذا يكون معنى الآية: ذكرهم بأيام انتصارات الأنبياء والمؤمنين على أولئك الطغاة المعاندين.

قال ابن عاشور: أيام الله أيام ظهور بطشه وغلبه من عصوا أمره، وتأييده المؤمنين على عدوهم، فان ذلك كله مظهر من مظاهر عزة الله تعالى. وشاع إطلاق اسم اليوم مضافاً إلى اسم شخص أو قبيلة على يوم انتصر فيه مسمى المضاف إليه على عدوه، يقال: أيام تميم، أي أيام انتصارهم، فأيام الله أيام ظهور قدرته وإهلاكه الكافرين به، ونصره أولياءه والمطيعين له[١].

٢. بينما يرى بعض المفسرين أن المقصود بِ «أيام الله» تلك الأيام التي حلّت فيها نقمة الله وغضبه على الكافرين الظالمين الذين كانوا يصرّون على معاندة ومناوأة أنبياء الله وعباده الصالحين، وذلك لما في هذه الأيام من ظهور لمقدرة الله وبطشه ونكاله بهؤلاء الظالمين المعتدين في الأرض.

---

(١) التحرير والتنوير ج١٢ ص٢٢٣.

٣. ورأى بعض المفسرين أن المعنى أشمل من هذين الموردين، فكل يوم حصل فيه حدث مصيري في تاريخ البشرية أو تاريخ مجتمع من المجتمعات، فإن ذلك اليوم يُعدُّ من أيام الله، لما في هذه المناسبات والأيام من عِبَر ودروس ومواعظ يتعلّم منها الإنسان، وتتعظ منها الشعوب والمجتمعات، روي عن النبي ﷺ أنه قال: أيام الله نعمائه وبلاؤه[١].

وعلى هذا الرأي يكون معنى الآية الكريمة أن الله تعالى يوجّه نبيّه موسى عليه السلام ويأمره بأن يذكّر قومه بهذه الأحداث والمواقف التي حصلت فيها تطوّرات مهمّة وتحوّلات مصيرية في تاريخهم، كانتصارهم على الطاغية فرعون حينما أهلكه الله تعالى مع جنوده.

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «كان رسول الله ﷺ يخطبنا فيذكّرنا بأيام الله»[٢].

وهذا يدلّ دلالة واضحة على أن هذا التعليم الربّاني ممتدّ مع بقية النبوّات، ليكون سِمَة بارزة في حياة المجتمعات المتديّنة، يتذكّر أفرادها ومجموعاتها تلك الأيام التي يجد فيها الإنسان ما يتّعظ به ويفيده في حياته العملية.

قال الفخر الرازي: إنه يعبر بالأيام عن الوقائع العظيمة التي وقعت فيها، يقال: فلان عالم بأيام العرب. ويريد وقائعها[٣].

---

(١) صحيح مسلم، باب فضائل الخضر عليه السلام، ص ١٢٩٤ ح٢٣٨٠، وبحار الأنوار ج٦٧ ص٢٠ ح١٧.

(٢) كنز العمال ج١٢ ص٤٢٠ ح٣٥٤٦٩.

(٣) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج١٩، ص٨٤، ط٣ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

قال سيد قطب: وكل الأيام أيام الله، ولكن المقصود هنا أن يذكرهم بالأيام التي يبدو فيها للبشر أو لجماعة منهم أمر بارز أو خارق بالنعمة أو بالنقمة(١).

وقال الشيخ ناصر مكارم الشيرازي:

أيام الله هي جميع الأيام العظيمة في تاريخ الإنسانية، فكل يوم سطعت فيه الأوامر الإلهية وجعلت بقية الأمور تابعة لها، هي من أيام الله ، وكل يوم يفتح فيه فصل جديد من حياة الناس فيه درس للعبر، أو ظهور نبي فيه، أو سقوط جبار وفرعون أو كل طاغ، ومحوه من الوجود، وكل يوم يعمل فيه بالحق والعدالة وتنهى حالة الظلم والجور هو من أيام الله(٢).

إقامة الذكرى عرف اجتماعي

وقد أصبح متداولًا ومعروفًا اليوم في المجتمعات البشرية أنها تهتمّ بأيام ذات أحداث مصيرية وتاريخية مهمّة.

فأغلب الدول تحتفي بيوم استقلالها وتحرّرها من نير الاحتلال الأجنبي، وأصبح هذا الأمر تقليدًا دوليًا، لا تكاد ترى دولة في العالم لا تحتفل بيوم استقلالها، وتجعله يومًا وطنيًا ويومَ عطلة. كما أن لكل دولة أو أمّة من الأمم أيامًا تحتفي بها رسميًا وشعبيًا. فالفرنسيون ـ مثلًا ـ يحتفلون بيوم سقوط الباستيل، ذلك السجن الذي كان رمزًا للظلم والطغيان.

---

(١) في ظلال القرآن ج٤ ص٢٠٨٨

(٢) الأمثل ج٧ ص٤٠٢.

وقد تعارفت بعض المجتمعات البشرية على تخصيص بعض الأيام لتكريس وتأكيد بعض القيم والاهتمامات الجيّدة، وذلك مثل يوم «عيد الأم». الذي هو عرف وتقليد قديم عند المجتمعات الأوروبية من القرن السابع عشر الميلادي، كيوم يتذكّر فيه الناس فضل الأم وتضحياتها ويجدّدون عهد التقدير والاحترام للأم، لما تتحمّله من عناء وبما تفيضه على الأبناء من محبّة وعطف في الحمل والرضاع والتربية.

أهمية التذكير بأيام الله

وللتذكير بالأيام المفصلية في حياة كل أمّة أهمية عظيمة تنطبع على واقع الأمة ومستقبلها، وذلك:

١. من أجل أن ترتبط المجتمعات البشرية بتاريخها، وتستفيد من التجارب والدروس والعبر التي حصلت في تلك الوقائع والأحداث السابقة، وإلاّ لو لم يكن هذا التركيز لكانت معرفة تلك الوقائع خاصّة بأولئك المعنيين بأمور التاريخ والأبحاث التاريخية فقط. لذلك فإن إعلانها والتذكير بها وطرحها بشِكْل عام يلفت أنظار الجميع، وبالتالي يستفيد الجميع من عبرها وتجاربها، كما أن ذلك يساعد على حفظ الهوية الثقافية والوطنية لكل مجتمع.

٢. ومن ناحية ثانية تكون إقامة ذكرى هذه الأحداث تخليدًا لمن قام بتحقيقها، فالبطولات التي تأسست عليها حضارات الأمم والشعوب يقف وراءها أبطال، تكون هذه الاحتفالات تخليدًا لذكراهم، وتلمُّسًا لمواقع البطولة والتميّز لدى هؤلاء الأفراد أو هذه المجموعات.

برامج التذكير بأيام الله بين المنع والقبول

في الآية القرآنية الكريمة يأمر الله تعالى نبيّه موسى عليه السلام بتذكير قومه بأيام الله، فالقرآن هنا لم يضع كيفية معيّنة بها يتحقّق هذا التذكير، ولكنّ ما عليه كثير من الأمم والشعوب أن يتم ذلك عادةً من خلال الاحتفال الشعبي وما يصاحب ذلك من إدخالٍ لبعض التقاليد والأعراف في إحياء هذه المناسبات التي ـ غالبًا ـ ما تقام سنويًّا.

والاحتفاء بالمناسبات الدينية أو الاجتماعية بهذه الطريقة قد تحفَّظت عليها بعض المدارس الإسلامية، وهي المدرسة السلفية، فهم يرون أن الاحتفال بشِكْل منتظم ومبرمج بأي مناسبة ـ تاريخية أو اجتماعية أو دينية ـ غير مشروع وبدعةً في الدين.

ولذلك كان هناك ممانعة في الاحتفال باليوم الوطني في المملكة داخل البلاد ضمن مظاهر رسمية، فقد كان ذلك ممكنًا في سفارات المملكة في الخارج، ولكن لم يكن ممكنًا في داخل البلاد بسبب التحفّظ الديني الذي كان يبديه علماء هذه المدرسة.

فحينما أصبح هناك ضرورةَ أن يعيش الناس في هذا البلد الانتماء إلى وطنهم وأن يشعروا بقيمة هذا الكيان وحبّه وأن تكون هناك هويّة مشتركة يجتمع فيها المواطنون ويلتقون فيها عاطفيًّا ما عادت تظهر تلك المعارضة التي كانت في الماضي، ويبدو أن الظروف السياسية والمستجدات في المملكة قد قلصت من هذه التحفظات، أو دفعت الدولة لتجاوزها فتقرر أن يكون اليوم الوطني عطلة رسمية، وأن تقام مختلف البرامج للاحتفاء به.

وهذا الرأي (التحفّظ في إقامة الاحتفالات الدينية أو التاريخية) يبقى رأي مدرسة معينة، والغالبية الساحقة من المسلمين وفقهائهم لا يرون هذا

الرأي، ونجد ذلك واضحًا في إقامة ذكرى المولد النبوي الشريف الذي تحتفل به معظم البلاد الإسلامية، وتعدُّه عطلة رسمية، ومناسبةً مهمّة، يجـدّدون فيه الولاء لرسول الله ﷺ، ويتحدّثون عن سيرته وتاريخه، ويجدّدون العهد بتعاليمه.

بقي أن نشير إلى أن المخالفين لإقامة هذه المناسبات، ربما استشهدوا بحصول بعض الممارسات الخاطئة في برامج هذه المناسبات كمبرر للمنع والتحريم، وهو استدلال غير علمي ولا موضوعي، لأن كثيرا من البرامج الدينية والاجتماعية قد تتسلل إليها بعض الممارسات الخاطئة، فهل نحرّم تلك البرامج ونمنعها بالكامل أم نعارض الأخطاء بحدودها، فلو استخدمت الصلاة لخداع الناس - والخداع محرم - فهل تحرم الصلاة؟، نعم العمل يجب أن يكون بعيدا عن المحرمات ، و« الاستدلال على الجواز أو المنع بالأمور الجانبية خروج عن الاستدلال الفقهي ، فإن الحكم بالجواز والمنع ذاتا يتوقف على كون الشئ بما هو هو جائزا أو ممنوعا ، وأما الاستدلال على أحدهما بالأمور الطارئة فليس استدلالا صحيحا »[1].

ولو دارت المسألة في إقامة الاحتفالات والمناسبات الدينية في إطار اختلاف الرأي لا مانع من ذلك، فلكل طرف رأيه واجتهاده وقناعته، ولا يصحّ أن تتحوّل هذه المسألة إلى صراع وصدام.

المحور الثاني: عاشوراء نموذجًا

في تاريخنا الإسلامي وقائعُ لها أهمية، ومنعطفاتٌ تشكّل لحظات مصيرية في تاريخ الأمة، وتؤثّر على وجدانها وثقافتها، وعلى واقعها

(١) السبحاني: جعفر، البدعة مفهومها، وحدها وآثارها ص١٣٨.

الاجتماعي والسياسي. هذه الأحداث يمكن أن تكون مصداقًا لعنوان «أيام الله» الوارد في القرآن الكريم.

ويمكننا ـ بكل ثقة ـ أن نَعُدَّ «يوم عاشوراء» مصداقًا بارزًا من بين تلك الأحداث، وذلك لما تحفل به هذه الحادثة من دروس وعبر وقيم للأمة وجماهيرها الواسعة.

«عاشوراء» مصطلح إسلامي

يشير بعض علماء اللغة إلى أن مصطلح (عاشوراء) مصطلح إسلامي لم يكن في الجاهلية. هذا ما أكّده ابن دريد في الجمهرة: عاشوراء يوم سمّي في الإسلام ولم يعرف في الجاهلية[1].

ويُقْصَد به اليوم العاشر من المحرّم، ولا يطلق على أي يوم عاشر من أي شهر غير المحرّم.

وهناك من يرى أنه ـ كمصطلح ـ كان متداولًا قبل الإسلام، ويروون في ذلك بعض الروايات في صحيحي البخاري ومسلم، فقد جاء ـ فيهما واللفظ للبخاري ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: قَدِم النبيِ ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا؟» قالوا: هذا يومٌ صالحٌ، هذا يوم نجّى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى. قال: «فأنا أحق بموسى منكم». فصامه وأمر بصيامه [2]. وفي مسلم « نحن أحق بموسى منكم » فأمر بصيامه[3].

وجاء عن عائشة أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ أمر بصيام يوم

(١) الجمهرة في لغة العرب، باب ع ش ر.

(٢) صحيح البخاري، ج١، ص٤٩٢، ح٢٠٠٤.

(٣) صحيح مسلم،ص٥٧١،ح١١٣٠ باب صوم يوم عاشوراء

عاشوراء، فلما فُرض رمضان، كان من شاء صام، ومن شاء أفطر»[١].

كان ذلك قبل فرض صيام شهر رمضان، فلمّا فُرِض صيام شهر رمضان أصبح صوم يوم عاشوراء ليس مفروضًا على المسلمين، وإنما عدُّوه مستحبًا.

ولكنّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام تتحفظ على هذه الأحاديث من ناحية السند، وتناقش أيضًا في المضمون، وقد قام الشيخ نجم الدين الطبسي بإحصائها ومناقشة متنها وسندها في كتابه (صوم عاشوراء)[٢] وتذهب هذه المدرسة إلى أن هذا المصطلح يظل مصطلحًا إسلاميًّا تعارف المسلمون عليه بسبب الواقعة التي حصلت فيه باستشهاد الإمام الحسين عليه السلام في ذلك اليوم.

التعتيم على واقعة «عاشوراء»

حينما نقرأ التاريخ نجد أن بني أميّة كانوا يريدون التعتيم على هذه الحادثة، لينسى الناس ما حصل لأهل البيت عليهم السلام في كربلاء، ومن أجل ذلك كانوا يعلنون ذلك اليوم عيدًا ويوم فرح وسرور، وهذا ما نجد الإشارة إليه في إحدى فقرات الزيارة الواردة عن الإمام الباقر عليه السلام، حيث يقول فيها: «... اَللّـهُمَّ إن هذا يَوْمٌ تَبَرَّكَتْ بِهِ بَنُو أُمَيَّةَ وَابْـنُ آكِلَةِ الأكبادِ»[٣].

وورد في كتب التاريخ ـ كما ينقل أبو الريحان البيروني في الآثار الباقية، «فأما بنو أمية، فقد لبسوا فيه ما تجدد، وتزيّنوا، واكتحلوا، وعيّدوا،

(١) المصدر السابق، ح٢٠٠١.

(٢) الطبسي: الشيخ نجم الدين، صوم عاشوراء، دارة الولاء – بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

(٣) مفاتيح الجنان، ص٥٥٥.

وأقاموا الولائم والضيافات، وأطعموا الحلاوات والطيبات، وجرى الرسم في العامة على ذلك أيام ملكهم، وبقي فيهم بعد زواله عنهم»[١].

ورووا في ذلك أحاديث وروايات موضوعة ومجعولة، كما يشير ابن تيمية، فيقول: «.. وإظهار الفرح والسرور يوم عاشوراء، وتوسيع النفقات فيه، هو من البدع المحدثة، المقابلة للرافضة»، وأضاف ابن تيمية، «.. وقد وُضِعَت في ذلك أحاديث مكذوبة في فضائل ما يصنع فيه، من الاغتسال والاكتحال إلخ ...» وقال: «.. وأحدث فيه بعض الناس أشياء، مستندة إلى أحاديث موضوعة لا أصل لها، مثل: فضل الاغتسال فيه، أو التكحل، أو المصافحة»[٢].

ومن أمثلة هذه الروايات الموضوعة ما رووه عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾[٣] قوله: «وكان يوم الزينة يوم عاشوراء»[٤].

ولعل التفسير بيوم عاشوراء من البدع الأموية وإعلامهم المضلل للتغطية على الجريمة الكبرى التي صدرت منهم في كربلاء بحق سيد شباب أهل الجنة وأهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولأجل التصغير من حجمها والتقليل من شأنها.

وهذا ما أثبته العيني في كتابه عمدة القاري حيث يقول: ما ورد في صلاة ليلة عاشوراء ويوم عاشوراء وفي فضل الكحل يوم عاشوراء لا يصح ومن ذلك من اكتحل بالأثمد وهو حديث موضوع وضعه قتلة

(١) المواسم والمراسم، ص٨٤.
(٢) كتاب اقتضاء الصراط المستقيم، ص٣٠٠.
(٣) سورة طه: الآية ٥٩.
(٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص١٥٦.

الحسين[1].

ولكنّنا نجد في قبال هذه الأحاديث الموضوعة أحاديثَ صحيحة في مصادر المسلمين باختلاف مذاهبهم تبيّن اهتمام رسول الله ﷺ وإعلانه ﷺ لحزنه وألمه لما يحدث من بعده لسبطه الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، وهذا مروي في المصادر الصحيحة المعتمدة عند أهل السنة وبأسناد صحيحة عندهم.

من ذلك ما يذكره الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين عن أم الفضل بنت الحارث ـ وهي لبابة زوج العباس بن عبد المطلب أول امرأة أسلمت في مكّة بعد أم المؤمنين خديجة عليها السلام ـ تقول أنها دخلت يومًا على رسول الله ﷺ فقالت: «يا رسول الله، إني رأيت حلمًا منكرًا الليلة»، قال: «ما هو؟»، قالت: «إنه شديد»، قال: «ما هو؟»، قالت: «رأيت كأن قطعة من جسدك قُطِّعَت ووضعت في حجري»، فقال رسول الله ﷺ: «رأيت خيرًا، تلد فاطمة ـ إن شاء الله ـ غلامًا فيكون في حجرك» فولدت فاطمةُ الحسينَ فكان في حجري، كما قال رسول الله ﷺ، فدخلت يومًا إلى رسول الله ﷺ فوضعته في حجره، ثم حانت مني التفاتة، فإذا عينا رسول الله ﷺ تهريقان من الدموع، قالت: فقلت: «يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، ما لك؟» قال: «أتاني جبرئيل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأخبرني أن أمتي ستقتل ابني هذا. فقلت: «هذا؟» فقال: «نعم»، وأتاني بتربة من تربته حمراء».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه[2].

---

(١) صوم عاشوراء بين السنة النبوية والبدعة الأموية ص ١٢٣.

(٢) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٩٤.

وأورد المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني الحديث السابق في سلسلة أحاديثه الصحيحة تحت رقم ٨٢١ وعلّق عليه بقوله: «له شواهد عديدة تشهد لصحته، منها: ما عند أحمد بن حنبل (٦/ ٢٩٤) حدثنا وكيع قال: حدثني عبد الله بن سعيد عن أبيه عن عائشة أو أم سلمة، أن النبي ﷺ قال لإحداهما: «لقد دخل عليّ البيت مَلَك لم يدخل عليّ قبلها، فقال لي: «إن ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها»، قال: فأخرج تربة حمراء». قال الألباني: وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين، وقال الهيثمي (٩/ ١٨٧): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»[١].

وأخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، حديث رقم ٦٤٨، بسنده عن عبد الله بن نجي، عن أبيه، أنه سار مع علي، وكان صاحب مطهرته، فلما حاذى نينوى وهو منطلق إلى صفين، فنادى علي: اصبر أبا عبد الله، اصبر أبا عبد الله، بشط الفرات، قلت: «وماذا؟»، قال عليه السلام: «دخلت على النبي ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان، قلت: «يا نبي الله، أأغضبك أحد؟ ما شأن عينيك تفيضان؟»، قال: «بل قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات»، قال: فقال: «هل لك إلى أن أُشمك من تربته؟» قال: قلت: «نعم». فمد يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها، فلم أملك عيني أن فاضتا»[٢].

في هذه الأحاديث وأمثالها ما يدلُّ على أن رسول الله ﷺ كان يهتمّ بيوم عاشوراء كواقعة، وهذا أمر كان بيِّنًا واضحًا لدى أمهات المؤمنين ولدى

(١) الألباني: محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج٢، ص٤٨٥.
(٢) بن حنبل: الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج١، ص٢٦٤.

أصحابه وأهل بيته. وفي هذا يقول ابن عبّاس: «ما كنّا نشكُّ وأهلُ البيت متوافرون أن الحسين يقتل بالطف»[١].

كل هذا يدلُّ على أهمية الواقعة التي كان رسول الله ﷺ يذكّر بها أصحابه وأهل بيته قبل وقوعها بنصف قرن من الزمان.

بل هذا واضح من سيرة أهل البيت عليهم السلام حيث اتخذوا هذا اليوم يوم حزن وبكاء، روي عن عبد الله بن سنان قال : دخلت على أبي عبد الله عليه السلام يوم عاشوراء ، [فألفيته كاسف اللون ظاهر الحزن] ، ودموعه تنحدر عن عينيه كاللؤلؤ المتساقط ، فقلت : مم بكاؤك؟ فقال: . أو في غفلة انت؟ أما علمت أن الحسين عليه السلام أصيب في مثل هذا اليوم ؟[٢].

ماذا تمثّل عاشوراء في ضمير المسلمين؟

عاشوراء كواقعة من أهم الأحـداث التي وقعت في تاريخ الأمة الإسلامية تمثّل لنا أمرين مهمّين، هما:

١. عظمة الموقف المبدئي الذي وقفه سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام، إذ كانوا قلّة قليلة، ولكنهم ضربوا أروع الأمثلة في الصمود والثبات، والالتزام بالقيم، والدفاع عن المبادئ، والاعتراض على الظلم والفساد والانحراف. ونحن حينما نتذكّر عاشوراء إنما نتذكّر هذه المواقف العظيمة السامية الرائعة.

٢. بشاعة الظلم الذي وقع على أهل البيت عليهم السلام وانتهاك حرمات الله في ذلك اليوم.

---

(١) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٩٧، ح٤٨٢٦.

(٢) وسائل الشيعة ج١٠ ص٤٥٩ ح١٣٨٤٤.

فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن رجلاً عاديًّا، وإنما له شخصيته ومكانته وموقعيته التي لا يجهلها أحد من المسلمين. كما أنه لم يمضِ وقت طويل على وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي كان المسلمون يسمعون منه ويرون مواقفه التي يعبّر فيها صلى الله عليه وآله وسلم عن حبّه للحسين وانشداده له.

لقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على مرأى من الصحابة ومسمع منهم: «إن الحسن والحسين هما ريحانتاي من الدنيا»[1]، وفي صحيح البخاري في باب مناقب المهاجرين وفضلهم عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: « هما ريحانتاي من الدنيا »[2].

وفي موضع آخر سمعوا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خير منهما»[3].

وروى عبد الله بن شداد عن أبيه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في إحدى صلاتي العشى الظهر أو العصر وهو حامل حسن أو حسين فتقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى فسجد بين ظهري صلاته سجدة أطالها قال إني رفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو ساجد فرجعت في سجودي فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة قال الناس يا رسول الله انك سجدت بين ظهري الصلاة سجدة أطلتها حتى ظننا انه قد حدث أمر أو انه يوحى إليك قال كل ذلك لم يكن ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضى»[4].

---

(١) كنز العمال ج١٢ ص١١٣ ح٣٤٢٥١.

(٢) صحيح البخاري باب مناقب المهاجرين وفضلهم ج٤ ص٢١٧.

(٣) المستدرك على الصحيحين ج٣ ص١٨٢ ح٤٧٧٩.

(٤) مسند احمد بن حنبل ج٨ ص٩٢٨ ح٢٨١٩٩.

وغيرها من الأحاديث التي كان يتذكّرها المسلمون ويروونها لبعضهم ويتناقلونها فيما بينهم.

لذلك لا يمكن عَدّ ما حصل يوم العاشر من المحرّم من انتهاك للحرمات حدثًا عاديًّا، بل يجب التأمّل فيه جيدًا، والوقوف عند محطّات هذه الحادثة للاستفادة من أحداثها والـدروس العظيمة التي تجلّت فيها.■


رسالة عاشوراء



أخرج الترمذي وأحمد بن حنبل وابن أبي شيبة والحاكم في المستدرك والبخاري في الأدب المفرد عن يعلى بن مرّة قال: «قال رسول الله ﷺ: حسين منّي وأنا من حسين، أحبَّ الله من أحبّ حسينًا»[1].

هذا الحديث وأمثاله أحاديث كثيرة تناقلها الصحابة وأمهات المؤمنين عن رسول الله ﷺ في حق ولده الحسين، وتوضح بعض الأحاديث كيف أن رسول الله ﷺ كان يحدّث الأمّة عن مقتل حبيبه الحسين، وهو يبكي والدموع تسيل من عينيه، مما يدلّ على أن رسول الله ﷺ كان يريد اهتمام الأمّة بهذه الحادثة، لذلك نحن نحتفي بذكرى عاشوراء التي مزّقت قلب رسول الله ﷺ قبل وقوعها بأكثر من نصف قرن.

الحسين يسيطر على القلوب

الإمام الحسين عليه السلام سيطر وهيمن على القلوب، حتّى إنه ليمكن القول إنه ليست هناك شخصية تجيش لها المشاعر والعواطف كشخصية أبي عبد

(١) سنن الترمذي، ج٥، ص ٣٢٣.

الله الحسين عليه السلام، وهذا أمر طبيعي، لأسباب كثيرة، منها:

أوّلاً: ما سمعه الأصحاب من جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يتحدّث عنه، ويشيد بفضله، ويكفي أنه صلى الله عليه وآله يقول في حقّه: «حسين منّي وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا». إذ يَعُدُّه جزءًا منه، ويعدُّ محبّته علامةً وشرطًا لمحبته، وكذلك يطلب من الله أن يحب من يحب الحسين، ولذلك نجد في موارد كثيرة يُظهر فيها الصحابة المحبّة والتقدير للحسين.

من ذلك ما جاء عن ابن كثير[١] أن الحسنين عليهما السلام كانا إذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطمونهما مما يزدحمون عليهما للسلام عليهما.

وكان الحسنان يذهبان إلى الحج مشيًا، فكل من يمرّ من المسلمين ويرى الحسنين ماشيين ينزل ويمشي لمشي الحسنين، حتى شق المشي على كثير من الحجاج فتحدثوا مع أحد أعلام الصحابة، وطلبوا منه أن يعرض عليهما الركوب أو التنكب عن الطريق، فعرض عليهما ذلك، فقالا: «لا نركب ولكن نتنكب عن الطريق»، وسلكا طريقًا آخر[٢].

وتقول كتب السير كما ورد في الإصابة[٣] عن الإمام الحسين عليه السلام أنه دخل مسجد جده رسول الله صلى الله عليه وآله وهو صغير يقول: «أتيت عمر وهو يخطب على المنبر، فصعدت إليه، فقلت: «انزل عن منبر أبي واذهب إلى منبر أبيك». فقال عمر: «لم يكن لأبي منبر»، وأخذني فأجلسني معه أقلب حصًى بيدي، فلما نزل انطلق بي إلى منزله، فقال لي: «من علمك؟» قلت: «والله ما علمني أحد».

---

(١) البداية والنهاية ج٨، ص ٣٩.

(٢) حياة الإمام الحسين، باقر شريف القرشي ج١ص١٠٦.

(٣) الإصابة – ابن حجر – ج ٢ – ص ٦٩.

وفي الإصابة أيضًا أن عمر قال للإمام الحسين: «إنما أنبت ما ترى في رؤوسنا الله، ثم أنتم»(١).

وينقل عن عبد الله بن عباس الصحابي الجليل أنه كان إذا خرج الحسن والحسين عليهما السلام هيأ لهما الراحلة، وساعدهما في الركوب وأعانهما على لباسهما. فقيل له في ذلك: «أنت أكبر منهما، تمسك لهما، وتسوي عليهما» فزجر السائل قائلاً: «يا لكع، أوَ تدري مَن هذان؟ هذان ابنا رسول الله، أَوَ ليس مما أنعم الله به علي أن أمسك لهما الركاب وأسوي عليهما الثياب»(٢).

وهذا أبو هريرة يحتفي بالإمام الحسين، كما جاء عن أبي المهزم، قال: «كنا مع جنازة امرأة ومعنا أبو هريرة فجيء بجنازة رجل، فجعله بينه وبين المرأة فصلى عليهما، فلما أقبلنا أعيا الحسين فقعد في الطريق، فجعل أبو هريرة ينفض التراب عن قدميه بطرف ثوبه، فقال الحسين: «يا أبا هريرة، وأنت تفعل هذا؟ قال أبو هريرة: «دعني فوالله لو يعلم الناس منك ما أعلم لحملوك على رقابهم»(٣).

وفي حادثة ثالثة ترويها لنا المصادر التاريخية، عن رجاء بن ربيعة قال: «كنت في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله إذ مر الحسين بن علي فسلم فرد عليه القوم السلام، وسكت عبد الله بن عمرو، ثم رفع ابن عمرو صوته بعدما سكت القوم، فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته»، ثم أقبل على القوم فقال: «ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟» قالوا: «بلى»، قال: «هو هذا الماشي» -وأشار إلى الحسين-»(٤).

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر ج٢ ص٣٠٠.
(٢) حياة الإمام الحسين عليه السلام ج١ ص١٠٦.
(٣) تاريخ الإسلام للذهبي ج٥ ص١٠٢.
(٤) أسد الغابة ج٣ ص٢٣٥.

هذه الحفاوة من الأصحاب ومن المسلمين بالإمام الحسين عليه السلام إنما كانت من الأحاديث التي سمعوها من جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله في حقّ الحسنين، وفي حقّ الحسين خاصّة.

ثانيًا: شخصية الإمام الحسين في فضله وعلمه وعبادته وأخلاقه، هذه الشخصية التي أسرت النفوس والقلوب.

لقد سجل التاريخ كلمات المدح والثناء على شخصية الإمام عليه السلام من قبل كثير من الصحابة والتابعين عبر العصور.

ثالثًا: شهادته عليه السلام في حادثة كربلاء بما تضمنته من بسالة وشجاعة وبما اكتنفته من مأساة مفجعة. وفي ذلك يقول سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن في تفسير سورة غافر: «والحسين - رضوان الله عليه - وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب، المفجعة من جانب، أكانت هذه نصرًا أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة. فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصرًا. فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين رضوان الله عليه، يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين من المسلمين وكثير من غير المسلمين»[1].

كربلاء حدث إنساني عظيم

قضية كربلاء ليست قضية بسيطة أو عادية، ففي التاريخ الإسلامي والإنساني كثير من الأحداث، لكنّه يمكن القول ـ بضرس قاطع ـ أنه

(١) في ظلال القرآن ج٥ ص٣٠٨٦ ، تفسير سورة غافر آية ٥١.

ليست هناك حادثة وقضية توازي حادثة كربلاء، فليس هناك حادثة مستقبلية تحدّث عنها رسول الله ﷺ بالاهتمام الذي تحدّث به عن واقعة كربلاء، فهناك روايات كثيرة تنقلها أمّهات المؤمنين كأم سلمة وعائشة، وكذلك يرويها جمع من الصحابة كأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعبد الله بن عبّاس وأنس بن مالك وأمثالهم، كلهم ينقلون أنهم رأوا رسول الله باكٍ، فيسألونه: «ما الذي يبكيك يا رسول الله؟» فيجيبهم ﷺ: «لقد دخل عليَّ البيت مَلَك لم يدخل عليَّ قبلها[1] ـ وفي بعض الروايات أتاني جبريل[2]، وفي بعضها هبط عليَّ ملك المطر[3] ـ فقال لي: إن ابنك هذا — حسين – مقتول، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، قال: فأخرج تربة حمراء»، وفي بعض الروايات أن الرسول ﷺ أراهم هذه التربة[4]، وهذه الروايات موجودة في كتب الفريقين الشيعة والسنة.

وتروي بعض المصادر الحديثية عن أم سلمة أنها احتفظت بتلك التربة التي قال لها رسول الله ﷺ عنها: «إذا رأيتِ هذه التربة وقد فاضت دمًا عبيطًا فاعلمي أن حسينًا قد قتل» وأنها كانت ظهر اليوم العاشر من المحرّم نائمة فانتبهت من النوم فزعة مرعوبة، فسئلت: «ما أرعبكِ يا أم المؤمنين؟» قالت: «رأيت رسول الله ﷺ في المنام وعلى رأسه ولحيته التراب فقلت مالك يا رسول الله؟ قال: شهدتُ قتل الحسين آنفًا»[5]، فبادرت أم سلمة

---

(١) مسند الإمام احمد ج٦ ص٢٩٤.
(٢) المستدرك على الصحيحن، ج٣ ص١٧٧.
(٣) مسند الإمام أحمد ج٦ ص٢٩٤.
(٤) مجمع الزوائد للهيثمي ج٩ ص١٨٧.
(٥) سنن الترمذي ج ٥ – ص ٣٢٣.

إلى تلك القارورة التي تحتفظ فيها بتربة كربلاء فرأتها وقد فاضت دمًا عبيطًا.

وعن عبد الله بن عبّاس أنه كان نائمًا ظهر اليوم العاشر من المحرّم، فانتبه وهو فزع، فسئل عن ذلك، فقال: «رأيت النبي ﷺ فيما يرى النائم بنصف النهار وهو قائم أشعث أغبر بيده قارورة فيها دم فقلت: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا؟» قال: «هذا دم الحسين وأصحابه لم أزل التقطه منذ اليوم فأحصينا ذلك اليوم فوجدوه قتل في ذلك اليوم»[١].

هذه الأحاديث والروايات تدلُّ دلالة واضحة على أن حادثة كربلاء ليست حادثة عادية، كما أن أي إنسان ـ مهما كان رأيه ودينه ـ إذا تأمل أحداثها لا يملك إلاّ أن يتفاعل مع هذه الحادثة المأساوية المفجعة.

لأن حادثة كربلاء تتضمّن البطولة والصمود، فتلك الفئة المحدودة قاومت وسجّلت في التاريخ أروع صفحات الصمود والتضحية، ومن جانب آخر كانت فيها مأساة عظيمة مؤلمة، ولم تحلَّ هذه المأساة بشخص عادي، بل هو ابن رسول الله ﷺ وسيّد شباب أهل الجنّة، فقد جاء في الحديث: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[٢]، ولم يقتصر الأمر عليه وإنما تعدّاه إلى أطفاله ونسائه وعائلته، وتطاولت أيدي الإجرام إلى جسمه الشريف بعد مقتله.

لقد سحقوا جثّته عليه السلام بحوافر الخيول، وسلبوا كل ما على جسده، فنهبوا قميصه وسراويله وقلنسوته ونهبوا حتّى عمامته، لدرجة أن بجدل الكلبي جاء ليبحث عمّا يسلبه فلم يجد سوى خاتمًا في خنصر يده عليه السلام، فعالج حتّى

---

(١) مسند الإمام احمد ج١ ص٢٨٣.

(٢) الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة ج٢ ص٤٣٨ ح٧٦٩.

ينتزعه فوجد الدماء وقد بنت على الخاتم، فخشي أن يقضي وقتًا في إخراجه، فأخذ خنجرًا وقطع خنصر الإمام[١]؟!

إن أمرًا بهذه الوحشية والإجرام لم يسبق أن حدث في التاريخ الإنساني لشخص بمكانة الإمام الحسين عليه السلام.

إن استشهاده عليه السلام بهذه الطريقة المأساوية والمؤثّرة من الأسباب التي خلّدت ذكراه ومعه هذه الحادثة.

مدرستان في التعامل مع عاشوراء

لا أحد من المسلمين يجهل قدر الحسين، أو لا يحزنه قتل الحسين، أو يرضى عمّا حصل للحسين عليه السلام، فهذا أمر نقطع به، ولكن درجة الاهتمام تتفاوت، وهذا التفاوت في التعامل مع هذه الحادثة ولّد وجود مدرستين:

المدرسة الأولى:

تقوم على أساس التغاضي عن هذه الحادثة، فنجدها عند البحث التاريخي تدين قتل الحسين، وتبدي التأسف لمقتله، ولا تقبل بذلك، ولكنّ أتباع هذه المدرسة يرون أنه لا داعي للوقوف عند هذه الحادثة طويلاً، وفي بعض الأحيان يحاولون تعويم المسئول عنها، فيبرئون يزيد بن معاوية من تحمّل المسؤولية، كقول ابن تيمية: «يزيد لم يأمر بقتل الحسين باتفاق أهل النقل»[٢]، أو يشيعون أنه ما كان يريد أن يقتل الحسين عليه السلام، وأنه تصرّفٌ فردي من ابن زياد[٣]، والبعض من أتباع هذه المدرسة يبرئ ساحة عبيد

---

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص٥٧.

(٢) منهاج السنة ج٢ ص٢٢٥.

(٣) أنيس زكريا: الدولة الأموية في الشام ص٥٨.

الله بن زياد، ويلقي باللائمة على عمر بن سعد، وأخيرًا نجد من يبرئ عمر بن سعد، كالعجلي في معرفة الرجال[١]، حيث يقول: «كان أمير الجيش ولم يباشر قتله»، أو يتّهم أهل الكوفة وأهل العراق، الذين هم من الشيعة، فيروّجون بأن الشيعة يبكون على الحسين تكفيرًا عن ذنبهم بقتله وخذلانه، وهذا كلّه تعويم للمسؤولية وكأن القاتل مجهول، بينما القضية واضحة في جميع المصادر التاريخية.

وهذه المدرسة يمكن عَدُّها امتدادًا لما كانت تشيعه السلطات الأموية وبعد ذلك العبّاسية.

حيث كانت هذه السلطات تريد التغطية على هذه الجريمة النكراء والتعتيم عليها، لأنه ليس في مصلحة الأمويين إثارة حادثة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وإشهارها، بل إن التاريخ ينقل كيف كان الأمويون يحاولون تحويل يوم عاشوراء إلى يوم عيد وفرح، وخاصّة في زمن عبد الملك بن مروان[٢]، حيث ظهرت هذه الحالة بشِكْلٍ واضح.

ونجد في الزيارة الواردة عن الإمام الباقر عليه السلام ما يشير إلى هذا المعنى، يقول عليه السلام: «اللهمّ إن هذا يوم تبرّكت به بنو أمية وابن آكلة الأكباد»[٣].

ويقول الشيخ القرضاوي: «رأينا أكثر بلاد المسلمين يحتفلون بيوم عاشوراء يذبحون الذبائح ويعتبرونه عيدًا أو موسمًا يوسعون فيه على الأهل والعيال اعتمادًا على حديث ضعيف، بل موضوع في رأي ابن تيمية وغيره، وهو الحديث المشهور على الألسنة: «من أوسع على عياله وأهله

---

(١) ج٢ ص١٦٦ رقم١٣٤٣.

(٢) القمي: الشيخ عباس، الكنى والألقاب ج٢ ص٣٨٥.

(٣) بحار الأنوار ج٩٨ ص٢٩٥.

يوم عاشوراء أوسع الله عليه سائر سنته». قال المنذري: «رواه البيهقي وغيره من طرق عن جماعة من الصحابة»، وقال البيهقي: «هذه الأسانيد وإن كانت ضعيفة فهي إذا ضم بعضها إلى بعض أخذت قوة».

وقال القرضاوي: «وفي هذا القول نظر، وقد جزم ابن الجوزي وابن تيمية في منهاج السنة وغيرهما أن الحديث موضوع. وحاول الطبراني وغيره الدفاع عنه و إثبات حسنه لغيره! وكثير من المتأخرين يعزُّ عليهم أن يحكموا بالوضع على حديث، والذي يترجح لي أن الحديث مما وضعه بعض الجهال من أهل السنة في الرد على مبالغات الشيعة في جعل يوم عاشوراء يوم حزن وحداد فجعله هؤلاء يوم اكتحال و اغتسال وتوسعة على العيال»[1].

هذه الحالة الاحتفالية بيوم عاشوراء كعيد انتهت ولكن آثارها بقيت، هناك بعض المسلمين في بلدان مختلفة لديهم عادات يوم عاشوراء، واهتمامات معيّنة، فيولمون في هذا اليوم ويصنعون بعض الحلويات الخاصّة به ولا يعلمون الخلفية التاريخية لذلك، إنها رواسب الثقافة الأموية، ومن آثار النهج السلطوي الذي كان يريد التعتيم على قضية أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ونجد هذا حتّى في المجتمعات الإسلامية التي تكنّ المحبة والمودّة للإمام الحسين وتظهر الحب له، كالمجتمع المصري الذي يظهر الكثير من مظاهر الحب لأبي عبد الله الحسين، كما يظهر ذلك في صعيد مصر والقاهرة حيث يقيمون الاحتفالات الكبيرة والواسعة يوم ميلاد الإمام الحسين عليه السلام، ولكنّ هذا الشعب لا يهتمّ كثيرًا بإقامة ذكرى استشهاده، وهذا كله من تأثير تلك الثقافة التي كانت تريد التعتيم على قضية كربلاء.

---

(١) القرضاوي: يوسف ،كيف نتعامل مع السنة النبوية ص٧٩.

المدرسة الثانية:

في مقابل هذه المدرسة هناك مدرسة أخرى تعطي هذه الحادثة حقّها من الاهتمام، وتصرّ على إحيائها، والاهتمام والاحتفاء بها، وترفض هذه المدرسة أن يكون هناك تناسٍ لقضية الإمام الحسين، وهذه هي مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

فأئمة أهل البيت عليهم السلام بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام بدءًا من الإمام زين العابدين علي بن الحسين كانوا يحرصون ويؤكدون على إحياء هذه المناسبة وهذه الذكرى.

فعن الإمام أبى جعفر الباقر عليه السلام: «ثم ليندب الحسين ويبكيه — إلى أن يقول - وليعز بعضهم بعضًا بمصابهم بالحسين»[(١)].

وعن الإمام الرضا عليه السلام: «من كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه جعل الله يوم القيامة يوم فرحه وسروره وقرت بنا في الجنة عينه»[(٢)].

كذلك ورد الحث من أئمة أهل البيت عليهم السلام على إقامة العزاء لهذه المصيبة العظيمة، ومن ذلك ما جاء في استحباب البكاء لقتل الحسين وما أصاب أهل البيت عليهم السلام يوم عاشوراء واتخاذه يوم مصيبة.

ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «كان أبي عليه السلام إذا دخل شهر المحرم لا يرى ضاحكًا، وكانت الكآبة تغلب عليه حتى تمضي عشرة أيام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحزنه وبكائه»، ويقول: «هو اليوم الذي قتل فيه الحسين عليه السلام».

وهذا ما تشهده المجتمعات الموالية لأهل البيت عليهم السلام، حيث يهتمّون بهذه

(١) وسائل الشيعة ج١٤ ص٥٠٩ ح١٩٧٠٩.
(٢) بحار الأنوار ج٩٥ ص٣٤٤.

الذكرى ويعظّمونها، وذلك التزامًا منهم بتوجيهات أهل البيت ﷺ، فبالنسبة لنا هذه سنّة حسنة وليست بدعة، لأنّنا نعدها تجسيدًا لعناوين إسلامية، وتجسيدُ العنوان الإسلامي ليس بدعة، فنحن نعد ذلك تجسيدًا لأمر الله تعالى في تعظيم الشعائر، يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾، كما أننا نجد ذلك تجسيدًا للتذكير بأيّام الله، يقول سبحانه: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾، ونجده مصداقًا من مصاديق إظهار المودّة لقربى رسول الله ﷺ، يقول تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، وهذه جميعها عناوين إسلامية، وتطبيق القاعدة على المصاديق الخارجية ليس بدعة.

كما أنّنا نعد كلام أئمة أهل البيت ﷺ شرعًا متبعًا، لأنهم ينقلون عن جدّهم رسول الله ﷺ، كما قال الإمام الصادق ﷺ: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي عن أبيه عن جدّه عن رسول الله ﷺ»[1].

وإذا كان هناك من له رأي آخر فهو حرّ في رأيه، ومن المفترض أن يظل هذا في حدود اختلاف الرأي، ولا يصح أن يصادر طرف رأي وحرّية الطرف الآخر، فنحن بحاجة إلى الاعتراف بحرّية الرأي الآخر، وقبول نتائج الاجتهاد ما دام باب الاجتهاد مفتوحًا، و«للمجتهد ـ إن أصاب ـ أجران، وإن أخطأ أجر»، فهذا اجتهاد وكل يعمل باجتهاده، ولا داعي للإنكار عند اختلاف الاجتهاد.

(١) الكافي، ج1، باب التقليد، الحديث 14، ص 53.

أجواء الفتنة الطائفية

وهنا لابدَّ أن نقف عند موضوع إحياء هذه الذكرى، وعند الأجواء التي تريد بعض الأطراف أن تملأها بالشحن الطائفي، والتعبئة المذهبية، وخاصّة في هذه المرحلة الحسّاسة من تاريخ الأمّة.

لقد كان التفاؤل يعمر قلوبنا وقلوب كل الواعين والمخلصين، بأن الأمة قد قطعت شوطًا جيّدًا على طريق الوحدة، وأنها تجاوزت العصبيات والخلافات المذهبية، والتعبئة.. والتعبئة المضادّة، هذا التفاؤل والأمل أثارته مبادرات كثيرة في الداخل والخارج، من خلال ما عُقِدَ من مؤتمرات للتقارب بين المذاهب الإسلامية في مختلف بلدان المسلمين، وما أقيم من مؤسسات، وما وضع من كتب وأبحاث، وطرح من محاضرات بهذا الخصوص.

وفي المملكة العربية السعودية كانت مبادرة طيّبة باتجاه الحوار الوطني، ثمّ كانت قمّة مكّة الاستثنائية التي صدر عنها (بلاغ مكة المكرمة)[1] حيث شاركت فيها كل الدول الإسلامية، وتم الإعداد الجيّد لها بحضور أكثر من مئة عالم ومفكّر من بلدان المسلمين، فقدّموا توصيات إلى القادة، وتم إقرار هذه التوصيات، وكانت تنص على الاعتراف بالمذاهب الإسلامية، وعلى ضرورة أن يتفاعل المسلمون وأن يتعاونوا فيما بينهم، وعلى رفض التكفير، ووقف المهاترات بين الأطـراف، وعلى الدعوة إلى الوحدة والتقارب.

هذا كلّه أشاع الأمل والتفاؤل في النفوس، ولكنّنا مع الأسف نلحظ

(١) انعقد المؤتمر في ٥-٦/ ١١/ ١٤٢٦هـ الموافق ٧-٨/ ١٢/ ٢٠٠٥م.

أن المسيرة تمرّ هذه الأيام بشيء من الانتكاسة، حيث بدأت أصوات متطرّفة متشنّجة تملأ الأجواء، وتعكّر صفو الودّ بين المسلمين، وكأنّنا نعود للمربّع الأول.

قد لا نحتاج إلى مزيد من التأمّل، فالقضية واضحة، حيث حدث كل هذا بعد أن اهتزّ كيان إسرائيل على يد المقاومة اللبنانية، ونحن نرى تداعيات هذا الاهتزاز ونلحظها كل يوم داخل إسرائيل، اهتزازات سياسية واجتماعية، ونموذجها الأبرز تقرير لجنة فينوغراد، التي شكلت من لجان الكنيست الإسرائيلي لبحث أسباب الفشل في حرب تموز على لبنان.

وقد أصبحت الدولة العبرية بفعل هذه الاهتزازات ومشروعها الصهيوني في خطر.

وقد هال الشياطين وأعداء الأمة المستكبرين هذا الأمر، فأصبحوا يخططون ويعملون من أجل إعادة الأمة إلى حالة الفتنة الداخلية، وتأجيج الصراع والفتن، وكأن مشكلتنا ليست إسرائيل، ولا الهيمنة الأمريكية، ولا الإساءات التي تحصل اتجاه نبينا محمد ﷺ، بل أصبحت المشكلة خطر السنة على الشيعة، وخطر الشيعة على السنة.

بطبيعة الحال لا يمكننا أن نحمّل الأعداء كل المسؤولية، فأرضيتنا كانت مهيأة ومستعدّة لمثل هذه الأمور، فممّا يؤسف له أن مجتمعاتنا العربية هي من بين أكثر المجتمعات التي تعيش حال التمزّق في العالم، فمعظم المجتمعات في العالم وصلت إلى حلٍّ لخلافاتها، فاتفقت على دستور وقانون يرجع إليه، وإلى تداول سلمي للسلطة، وعلى أنظمة عادلة تدير شؤونهم

وأمورهم، لكنّ مجتمعاتنا العربية لا تزال تعيش هذه الحالات المؤلمة من التمزّق والتشتت.

بدئًا بالعراق التي تعيش أوضاعًا مؤلمة، وأودّ أن أؤكد في مسألة الموضوع العراقي إلى أن ما يحصل هناك لا يمت بصلة إلى الحالة المذهبية والصراع المذهبي، فلا يوجد طرف في العراق يقاتل من أجل عقيدته، وإنما كل طرف يقاتل من أجل وجوده كجماعة وطائفة، لتنال هذه الطائفة حقوقها السياسية في المناصب والمواقع، فهو صراع سياسي على الأدوار والحصص والمواقع، كما أننا لا نسمع أن في العراق اختلافًا على هذه الفكرة أو على هذه العقيدة أو هذا الـرأي، وإنما الصراع يتركّز على المواقع السياسية، وهذه مشكلة تعيشها مجتمعاتنا العربية في كل مكان، وإنما يستعمل المذهب والطائفة في العراق كعنوان فقط.

ومما يدلل على ذلك أن بلدانًا عربية لا يوجد فيها تنوع مذهبي ومع ذلك نجد فيها حروبًا وصراعات لا تنتهي، ومن أبرز هذه المناطق: منطقة دار فور في السودان.

فدارفور كانت سلطنة مستقلّة عند قيام الحرب العالمية الأولى، ولكنها وقفت مع الدولة العثمانية، فانتقم منها البريطانيون فيما بعد وأضافوها إلى السودان، وأهملوا تنميتها.

مساحتها: ٥٠٠ ألف كلم٢، وسكانها يزيدون على ستة (٦) ملايين نسمة.

هذه المقاطعة السودانية تعيش حربًا أهلية منذ خمس سنوات، وتحاول الأمم المتحدة أن تتدخّل وكذلك قوات الاتحاد الإفريقي، والإحصائيات تذكر أن ضحايا هذه الحرب بلغ أكثر من ٢٠٠ ألف قتيل، وأكثر من

مليوني مشرّد. والملايين الأربعة الباقية يعيشون على الإغاثة الدولية كليًّا أو جزئيًّا.

كما تشير التقارير إلى أن قرى بكاملها قد أحرقت بسبب الأوضاع المتأزمة، بالإضافة إلى انتشار حالات الجريمة والاغتصاب والخطف.

إن أهل دار فور جميعهم ينتمون إلى قبائل عربية، بعضها ترجع في جذورها إلى أصول عربية وأخرى إلى أصول إفريقية، وكلهم مسلمون ينتمون إلى المذهب المالكي، أي إنهم من أهل السنة والجماعة، ومع ذلك نرى رحى هذه الحرب التي لم تتوقف منذ أكثر من خمس سنوات.

المشكلة هي في عدم القدرة على التوافق داخل المتجمّعات العربية، حيث يحكمها خلل في العلاقات بين الأطراف.

وهذا أمر نجده كذلك في الصومال، فهذه الدولة تعدُّ من الدول القلائل المتجانسة سكّانيًّا، فكل دول العالم فيها تنوّع عرقي وقومي، وخمسة بالمئة منها فقط متجانسة، والصومال تعدُّ إحدى هذه الدول القليلة المتجانسة، لأن الشعب الصومالي ينتمي إلى عرق واحد، وقومية واحدة، ودين واحد، ومذهب واحد، فالصوماليون كلهم عرب مسلمون من أتباع المذهب الشافعي.

ولكن الشعب الصومالي له الآن أكثر من ٣٠ سنة يعيش حالة التمزّق والحروب الداخلية التي أسقطت الدولة، ولم تقم لها قائمة منذ سنة ١٩٩١م، وهذا يجري في بلد لا يعيش تنوّعًا مذهبيًّا ولا عرقيًّا.

وفي أفغانستان لم يكن الصراع فيها بين سنة وشيعة، فبعد انتهاء الاحتلال الروسي حكم المجاهدون، وهم في الأساس من أهل السنة والجماعة، ثم قامت عليهم حركة طالبان ـ وهم من أهل السنة والجماعة،

وحكمت أفغانستان، وبعد ذلك تحالفت أحزاب المجاهدين: حلف الشمال مع الأمريكيين والقوى الغربية وأسقطوا حركة طالبان، والآن تقوم طالبان من جديد تتحرّك وتفجّر مراكز ومناطق لأهل السنة والجماعة، ففي أفغانستان الصراع ليس دائرًا بين السنة والشيعة.

وما نراه اليوم في فلسطين، وهو أمر تتمزّق له قلوبنا، فهذا الشعب الفلسطيني المظلوم الذي تُحتل أراضيه، تدور عليها صراعات بين فصائله المختلفة، من خطف وقتل واستعمال للسلاح وأجواء متشنّجة، وهي صراعات ليست بين السنة والشيعة.

هذا كله يعني أن الصراعات الموجودة في مجتمعاتنا العربية لها جذور غير مسألة التنوّع المذهبي، فنحن كأفراد وفئات في هذه المجتمعات نعيش خللاً في العلاقات، وهناك افتقاد للنظام العادل الذي يتمتّع الجميع فيه بحقوق مواطنة متساوية.

ماذا نستفيد من عاشوراء؟

نحن نَعُدُّ إقامة ذكرى عاشوراء ليس مجرّد إثارة للعواطف والمشاعر، أو اجترار للكآبة والحزن، وإنما نحيي هذه الذكرى لنستلهم منها القيم، ولذلك أؤكد على ثلاثة دروس يمكن استفادتها من عاشوراء وإقامة ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، هي كالتالي:

الدرس الأول: الالتزام بالدين

فالإمام الحسين وأصحابه إنما جاهدوا من أجل بقاء الدين وقيم الإسلام، وليس من أجل أطماع وأغراض دنيوية ، يقول الإمام الحسين عليه السلام

في سبب خروجه وحركته: «إني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ﷺ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»[1]. وفي يوم عاشوراء يقول البطل الهاشمي العباس بن علي بن أبي طالب عليه السلام:

والله إن قطعتمـو يميني إني أحامي أبدًا عن ديني[2]

ولذلك علينا أن نخرج من أجواء عاشوراء بهذه الروحية، وبعزم وتصميم على الالتزام بتعاليم الدين، والاجتناب عن المعاصي، والتوبة إلى الله تعالى والمواظبة على أداء الصلوات وجميع الواجبات الأخرى.

الدرس الثاني: تحمّل المسؤولية الاجتماعية

كان بإمكان الإمام الحسين عليه السلام أن يبقى في داره، وفي مسجد جدّه ﷺ ـ كما أشار عليه كثيرون، وكما فعل آخرون ـ، لكنّه أبى إلاَّ أن يتحمّل مسؤوليته الشرعية والاجتماعية، يقول عليه السلام: «وأنا أحق من غيّر»[3].

وهنا يجب أن نأخذ الـدروس في أن نتحمّل المسؤولية تجاه وطننا ومجتمعنا، فكل واحد منّا مطالب بدور، وهذا أمر يمارسه الأفراد في جميع دول العالم تجاه مجتمعاتهم، فينخرطون في المؤسسات التطوّعية لتقديم الخدمات للمستفيدين من هذه المؤسسات.

وفي هذا المجال قرأت تقريرًا عن الأعمال التطوّعية في الولايات المتّحدة الأمريكية، يشير إلى أن خمسين بالمئة من الراشدين الأمريكيين يشاركون في الأعمال التطوّعية، وفي فرنسا يشارك ثلث الشعب الفرنسي في الجمعيات

(١) بحار الأنوار، ج٤٤، ص ٣٢٤.
(٢) بحار الأنوار ج٤٥، ، ص ٤٠.
(٣) تاريخ الطبري ج٤ ص ٣٠٤.

التطوّعية، ولكنّ مجتمعاتنا لا يزال الاهتمام بالعمل التطوّعي فيها محدودًا.

إن الجمعيات الخيرية والمؤسسات الاجتماعية والأندية الرياضية واللجان الخدماتية المختلفة تشكو من نقصٍ في الكوادر والدعم، وهذه المؤسسات تقدم خدماتها للجميع، وهي بحاجة ماسّة للدعم والتنمية والتطوير في مختلف المجالات.

وما دمنا في أيام عاشوراء لا بدَّ أن نشير إلى أهمية التفاعل مع مشروع التبرّع بالدم، فهذه حالة إنسانية وفيها الأجر والثواب، وبخاصّة حينما ينوي الإنسان أن يهدي ثواب التبرّع بالدم إلى أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

الدرس الثالث: مراعاة حقوق الناس

في ليلة العاشر من المحرّم أمر الإمام الحسين عليه السلام مناديًا ينادي بين أصحابه: «لا يقتل معنا رجل وعليه دين، فقام إليه رجل من أصحابه فقال له: «إن عَلَيَّ دينًا وقد ضمنته زوجتي»، فقال عليه السلام: «وما ضمان امرأة؟»»، بمعنى انه ليست لها إمكانات مادية عادة.

وروي عن موسى بن عمير عن أبيه قال: أمرني الحسين بن علي عليه السلام قال: «ناد أن لا يقتل معي رجل عليه دين، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «من مات وعليه دين أخذ من حسناته يوم القيامة»[1].

لقد أراد الإمام عليه السلام أن يكون المستشهد بين يديه متحرجًا في دينه، خالي الذمة من حقوق الناس وأموالهم، ولا يريد أن يكون سببًا في ضياع أي حق من حقوق الآخرين.

إن الإمام الحسين يقدّم أداء الدين على شرف الجهاد والنصرة له عليه السلام،

(١) حياة الإمام الحسين عليه السلام للقرشي ج٣ ص١٧١.

مع حاجته إلى النصرة، وهذا غاية سمو الأخلاق والنبل، وأنموذج مثالي من الدروس الأخلاقية العظيمة لكل الأجيال في كل زمان، ويجب أن نأخذ من ذلك درسًا، وبخاصّة مع ما نراه من تساهل عند كثيرين في أداء حقوق الناس، فنرى البعض لا يؤدّي الدين الذي عليه، ويسوّف في هذا الأمر، ونرى بعض أصحاب المؤسسات لا يعطون عمالهم أجورهم، وبخاصّة الأجانب منهم، وهذا لا يجوز شرعًا، فقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه»[1].

إننا يجب أن نكون حسّاسين تجاه حقوق الناس، فإنه لا يفيد الإنسان أعمال العبادة والخير إذا كان في ذمّته شيء من حقوق الناس. وفي يوم القيامة أول ما يحاسب عنه الإنسان حقوق الناس قبل الصلاة والصوم والحج، ولذلك علينا أن نكون مهتمّين ومراعين لهذه الحقوق.

السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أبناء الحسين وعلى أصحاب الحسين.■

(١) مستدرك الوسائل، ج١٤ ص ٢٩ ح١٦٠١٧.